المبحث الأول

سقوط المادية في تفسيرها للتاريخ

obeikandl.com

obeikandl.com

يظهر في دنيا الناس في بعض فترات التاريخ رجال يعتبرون أنفسهم أو يحسبهم الناس أصحاب دعوة يعيشون لها ويعملون من أجلها، حتى تنتشر بين الناس لتغير حياتهم، وفقا لمبادئ ومنهج هذه الدعوة، ومن بين هؤلاء: الأنبياء والمرسلون، والذين يدعون بدعوتهم من بعدهم، وهذا الصنف من الناس يسعدون وتسعد بهم أقوامهم بل تسعد بهم الإنسانية كلها لأنهم مرسلون من عند الله سبحانه وتعالى.

وهناك صنف آخر ضالون ومضلون، شقوا وشقيت بهم أممهم وأمم تأثرت بدعواتهم من بين هؤلاء إبليس العصر الحديث «كارل ماركس» صاحب البيان الشيوعي مع قرينه «انجلز» وقصة هذا البيان المشئوم:

أنه لما سافر ماركس من بروكسل إلى لندن، حيث ألقى خطابًا في مظاهرة لتأييد «بولندا» وكان الديمقراطيون المتآخون قد نظموها، ثم اشترك في مؤتمر تمهيدي للجماعات الاشتراكية، وفي ذلك المؤتمر عهد إليه بوضع «البيان الشيوعي» بعد مناقشة بنوده ووضع خطوطه العريضة، ثم عاد إلى بروكسل حيث انتهى من وضعه في يناير ١٨٤٨م.

ويحسن بنا أن نذكر ما جاء في مقدمة الطبعة الألمانية التي صدرت في ١٨٧٢م تنبيها للغافل ومعونة للعاقل ألا وهو: «عصبة الشيوعيين وهي جمعية عمالية أممية» (لاحظ

كلمة أممية التي تحتم ألا يكون ولاء الشيوعي لوطنه) لم يكن من الممكن بحكم الظروف في ذلك العهد إلا أن تكون جمعية سرية، كلفت الموقعين أدناه في مؤتمر لندن في تشرين الثاني «نوفمبر الثاني ١٨٤٧م» بوضع برنامج مفصل للحزب، نظري وتطبيقي بقصد نشره ولقد كان ذلك البيان هو النبع الآسن الذي استقت منه الشيوعية[١] مبادئها والذي يعنينا من تلك المبادئ في هذا المبحث هو مبدأ «المادية التاريخية» أو «التفسير المادي للتاريخ» الذي وضعه «كارل ماركس» و «انجلز» في رسائلهما بقولهما:

«إننا نعتبر الأحوال الاقتصادية هي العامل الذي يقرر أخيرًا أطوار التاريخ، ولكن النوع الحيواني في نفسه عامل من العوامل الاقتصادية» ثم يقول «ماركس» مؤكدًا هذا المعنى: «إن مجموع علاقات الإنتاج يكون الهيكل الاقتصادي للمجتمع، والقاعدة الحقيقية التي يقوم عليها بناء علوي من القانون والسياسة، تطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي، إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يكيف مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بوجه عام، فليس تفكير الناس هو الذي يحدد نوع حياتهم الاجتماعية بل على العكس حياتهم الاجتماعية هي التي تحدد نوع تفكيرهم» وعند مناقشة هذا المبدأ مناقشة موضوعية نرى في النهاية النتيجة الطبيعية والمنطقية له وهي:

أولًا: إن الذي يتتبع تاريخ الثورات والتغيرات الاجتماعية في العالم شرقًا وغربًا، ليتعرف على أسبابها ودوافعها لا يمكن أن يجزم بأي حال من الأحوال أنها كانت أسبابًا اقتصادية فقط، بل كان هناك من الأسباب السياسية والإنسانية ما يكاد يكون هو المحرك الرئيس لتلك الثورات والتغييرات، واختر لنفسك أيها القارئ الكريم ثورة من الثورات أو تغييرًا من التغيرات الاجتماعية، وناقشها من حيث الأسباب والدوافع على مهل بينك وبين نفسك وسترى...

وإن تعجب أيها القارئ فعجب قول فريق من الشيوعيون في العالم العربي والإسلامي

(١) تعريف الشيوعية: هي حركة مادية، إلحادية، غير خلقية، استبدادية، أنانية، استثمارية شاملة تحت ستار مصلحة المجتمع للفرد والفرد للمجتمع. (انظر الكيد الأحمر: تأليف عبد الرحمن الميداني)

-جريًا على هذا المبدأ: إن ظهور الإسلام في الجزيرة العربية كان لأسباب اقتصادية تمثلت في ثورة العبيد والفقراء على السادة الأغنياء.

ولننظر موقفًا من مواقف صاحب الرسالة ﷺ، يدحض تلك الفرية الكبرى والأكذوبة العظمى. وكم للشيوعيين والماديين والعلمانيين من أكاذيب ومغالطات!!

رُوي أن الملأ من قريش وأبو جهل معهم قالوا: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلًا عالمًا بالشعر والكهانة والسحر، فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر وعلمت من ذلك علمًا لا يخفى علي إن كان ذلك. فقالوا: آته فحدثه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا وتسفه أحلامنا وتذم ديننا؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك، ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان الذي يأتيك رئيًا من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ من كلامه، قال.

قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ

أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١- ١٣].

فوثب عتبة ووضع يده على فم الرسول ﷺ، وناشده الرحم ليسكتن.

ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فجاءه أبو جهل فقال أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدًا أبدًا. ثم قال: والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالا، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله «مثل صاعقة عاد وثمود» وأمسكت بفمه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إن قال شيئًا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب، يعني الصاعقة وفي رواية: فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي، خلوا محمدًا وشأنه واعتزلوه، فو الله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركم، وأن كان ملكًا أو نبيا كنتم أسعد الناس به، لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم، فقالوا: هيهات أسحرك محمد يا أبا الوليد؟ فقال: هذا رأيي لكم فأصنعوا ما شئتم[1].

فهل يمكن لعاقل أن يقول أن الدافع لهذا الموقف هو دافع اقتصادي؟.. «ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم»...

ثانيًا: إن للإنسان حاجاته المتعددة، منها المعنوي والعاطفي، كحاجته إلى العائلة، وإلى العلاقات الاجتماعية وإلى التأمل وإلى التعبير عن رأيه، وإلى الحرية، ومنها المادي كحاجته إلى الطعام والمسكن والملبس، فهل يمكن القول بأن الحاجات المادية وحدها هي التي تتحكم في ما عداها من الحاجات؟

---

(١) التفسير الواضح للدكتور محمد حجازي -يرحمه الله- جزء ٢٤ ص ٥٢، ٥٣.

ونحن نترك «انجلز» قرين «ماركس» يجيب عن هذا التساؤل بقوله في رسالة إلى صديقه «بلوخ» سنة ١٨٩٠، قبل وفاته بخمس سنوات «أنه هو وماركس قد بالغا في تقدير أهمية الأسباب الاقتصادية» وفي رسالة لصاحبه «ستارلنبرج» كتب يقول: «ماركس وانجلز» مسئولان جزئيا عن حقيقة أنه! في بعض الأحيان قد أعطى اتباعنا أهمية للعامل الاقتصادي أكثر مما يستحق، ولقد اضطررنا إلى تأكيد صفة المركزية في معارضتنا لخصومنا الذين كانوا ينكرون، ولم يكن هناك وقت ولا مكان ولا فرصة لإنصاف العوامل الأخرى في الحركة التاريخية وهكذا شهد شاهد من أهلها [١].

وشهادة ثانية:

تلك هي شهادة «كاوتسكي» (١٨٥٤ - ١٩٣٨م) الذي ذاع صيته في العالم الشيوعي حتى أنه يعتبر المفسر الأول للماركسية، ونظرا لوضوح شرحه فإن الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان فضلوا تفسيره على المذهب الأصلي، لأنهم وجدوا فيه نظاما أدق، هذا الشيوعي الذي يفضله أكثرية الألمان يقرر: أنه يخالف ماركس في أن المادة وحدها ذات تأثير عظيم في تطور الهيئة الاجتماعية، ولذا فقد كان كاوتسكي عدوًا للثورة والحرب ومحبًا للهدوء والسلام: (خلاصة الاقتصاد السياسي ص ١٢١).

ثم رد علمي غربي:

يقول «روستر» أستاذ التاريخ الاقتصادي في مؤسسة ماساشوستس للتكنولوجيا، والذي كان يعمل مستشارا للرئيس كيندي وكذلك لجونسون من بعده. في كتابه «مراحل النمو الاقتصادي»: «يعتبر الإنسان وحده أكثر تعقيدًا، فهو لا يسعى إلى المصلحة الاقتصادية وحدها بل إلى اللهو والسلطة والمغامرة وبكلمة مختصرة، فإن صافي السلوك الإنساني لا يعتبر في نظرنا سعيًا وراء شيء أقصى بل موازنة بين أهداف إنسانية بديلة ومتناقضة في كثير من الأحيان، إزاء مجالات الاختيار التي يرى البشر أنها مفتوحة أمامه».

---

(١) الشيوعية نظريا وعمليا، لكاربوهنت، ص ٦٤.

وبناء على هذا التقرير لدور الإنسان في تصور روستر، ثم بدراسته لواقع أوروبا، فإنه يقسم المجتمعات إلى خمسة أقسام من ناحية أبعادها الاقتصادية:

١- المجتمع التنفيذي التقليدي.

٢- المجتمع الذي تحققت له الشروط المؤهلة للانطلاق.

٣- المجتمع المنطلق.

٤- المجتمع السائر نحو النضوج.

٥- المجتمع الذي دخل عصر الاستهلاك الشعبي العالمي.

وبتطبيق نظريته على أوروبا يرى أن أول بلد تحقق فيها شرط الانطلاق وانطلقت من المجتمع التقليدي هي بريطانيا.

ورد علمي شرقي:

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله في كتابه الشهير «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه»: «ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن لعامل من العوامل الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من الحركات المؤثرة في حركات الأمم فإنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة، هذه القوة لا تضارعها القوة العصبية ولا قوة العرف ولا قوة الوطنية ولا قوة الأخلاق، ولا قوة الشرائع والقوانين إذا كانت هذه القوة، إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه أو العلاقة بينه وبين نوعه، على تعدد الأوطان والأقوام، أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن، وآباد لا تحصى فيما يتكشف عنه عالم الغيوب، وهذا على الأقل ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى وغايتها القصوى، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور».

ثالثًا: من المبادئ الأولية للشيوعية: «إن السياسة تابعة للثورة الصناعية» لكنا إذا نظرنا إلى واقع روسيا[١] والصين -وهما تمثلان الشيوعية في قمتها- نجد أن هذا الواقع ينقض هذا المبدأ تمامًا، حيث ثبت بما لا يدع مجالًا للشك: أن الثورة السياسية هي التي تنشئ الصناعة الكبرى، أو هي التي تهيئ الأسباب لإنشائها، فالانقلاب الشيوعي قام في روسيا بعد الحرب العالمية الأولى، وهي تكاد تقف في الصف الأخير من صفوف الدول الصناعية، والثورة الصينية التي ترتبط بالمذهب المادي قامت على أيدي الفلاحين بعد الحرب العالمية والثانية خلافًا لما توقعه جميع الأقطاب الشيوعيين خارج الصين وعلى رأسهم «ستالين».

والصين هي الدولة التي اخترعت المطبعة والبارود والإبرة المغناطيسية والمدن التجارية وعملة الورق وسلسلة المعاملات «البرجوازية» التي انتشرت في بلادها وتجاوزتها إلى غيرها، ولم تفعل تلك الأدوات شيئًا مما فعلته في أوروبا، وفرضت به فرائضها المحتومة التي غيرت مجرى التاريخ من نظام الرق إلى نظام رأس المال.

رابعًا: ما هو تفسير الشيوعية لبعض المظاهر التي لا يمكن إرجاعها إلى العوامل الاقتصادية كظهور بعض العباقرة في تاريخ الإنسانية، وكوجود أكثر من نمط واحد للتفكير يتعايش مع نظام واحد من علاقات الإنتاج؟ هنا سوف يقولون أنه محض «صدفة» وهكذا نجد أنفسنا بعد الجهد قد فسرنا الماء بالماء.

خامسًا: كيف يعتقد الشيوعيون أنهم بمجرد أن يعطوا الخبز للجائع فقد أعطوه حريته؟ إن الجائع قد يحصل على الخبز ولكنه يظل عبدًا.. صحيح أن العامل الاقتصادي له دور كبير في حرية الفرد، ولكن حينما تكون أهم مشكلات المجتمعات الشيوعية هي فقدان الحرية الفردية والسياسية، كما نشاهد وكما نسمع، فإن الحديث عن العامل الاقتصادي وارتباطه بالحرية يصبح لونا

(١) أي قبل انهيار الاتحاد السوفيتي.

من التلفيق والدجل السياسي، وتأمل الصورة الكالحة لأي مجتمع شيوعي، وسترى.

وبعد...

فإنه إذا ضاقت المادية بالتاريخ وأحداثه، فسقطت في محاولة تفسيره سقوطا شنيعا، وضقنا نحن بهذا التفسير فلن يضيق الإسلام بالتاريخ بأية حال من الأحوال بل فيه سعة أية سعة، وفي تفسيره له راحة أية راحة، وعسى أن يكون هذا التفسير موضع بحث تالٍ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

obeikandl.com